

## الفصل الثالث

### جماعات الصفوة في العالم الثالث

#### نظرية مجتمع الموزايكا التعددي

إذا كانت التعددية قد فهمت في الفصل السابق على أنها تباين في الأجزاء المكونة للنسق وفي أنماط الممارسة السياسية ومصادر القوة داخله . فإنها تفهم هنا بمعنى مغاير تماما . فالتعددية هنا تستخدم بمعناها الحرفي لتشير الى وجود جماعات عرقية وثقافية تعيش بجانب بعضها البعض الآخر مع قليل من الاتصال والتفاعل ، وكثير من الصراع تحت هيمنة جماعة سياسية واحدة . وهكذا يصور البناء الاجتماعي للمجتمعات الأفريقية، ومجتمعات الشرق الأوسط ، ومجتمعات جنوب شرق آسيا على أنه بناء يحوي في داخله مظاهر عدم الاستمرار discontinuities والانشقاق cleavages ولا يعرف أى شكل من أشكال التكامل والاستمرارية . وإذا ظهر التكامل والاستمرارية فإنهما يجب أن يفرضا على البناء المنقسم من الخارج . وهكذا يبدو القهر وكأنه ضروري ، وتحكم الصفوة وكأنه حتمي . والمجتمع التعددي وفق هذا المنظر يشبه قطعة الموزايكا ، التي تتكون من قطع صغيرة ذات ألوان وأحجام ونوعيات مختلفة لا تستطيع أن تضعها بجوار بعضها الا يدي منان . ولقد استخدم بعض أنصار هذا الاتجاه بالفعل - وكما سيتضح لنا أثناء العرض التالي - مصطلح « مجتمع الموزايكا Mosaic society » ومصطلح « نظرية الموزايكا ، Mosaic theory » ، بينما فضل البعض الآخر استخدام مصطلح المجتمع التعددي Plural society ليشير الى نفس ما يشير إليه مصطلح مجتمع الموزايكا أو نظرية الموزايكا . ومن هنا جاء الجمع بين الاصطلاحين في عنوان هذا الفصل .

وسوف ينصب الاهتمام في هذا الفصل على الكشف عن الجذور الفكرية التي استمدت منها هذه النظرية اطارها المعرفى ، على أن يتم التركيز بعد ذلك على توضيح آراء أنصار هذا الاتجاه حول الموضوعات الأساسية التي يدور حولها التحليل النظرى الذى نقدمه في هذا الجزء من البحث ، ومدى انعكاس هذه الآراء على اتجاهات البحث الامبيريقى في المجتمعات الريفية . هذا فضلا عن الكشف عن مدى ملاءمة هذا الاتجاه لدراسة جماعات الصقوة في المجتمع الريفى ومدى صدقه الامبيريقى وذلك من خلال رؤية نقدية . وهكذا سوف يضم هذا الفصل العناصر الآتية :

- أولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا .
- ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا .
- ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى في المجتمعات الريفية .
- رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا .

#### اولا : الجذور الفكرية لنظرية مجتمع الموزايكا

ترجع الجذور الفكرية لهذه النظرية الى أعمال كل من فيرنفال Furnivall عن جنوب شرق آسيا ، وكارلتون كون Carlton Coon عن الشرق الأوسط . غير أن هناك مجموعة من المؤثرات الأخرى التي أثرت على هذا الاتجاه بطريق غير مباشر ، نشير هنا الى بعض منها قبل أن نشير تفصيلا الى أعمال فيرنفال وكون :

١ - اشار بعض الباحثين المهتمين بموضوع التكامل في دول العالم الثالث ، والذين اندرجت أعمالهم تحت الاتجاه النظرى الذى عالجنه في الفصل السابق ، أشاروا الى وجود خلاقات عرقية ودينية وإقليمية في المجتمعات الحديثة في آسيا وإفريقيا . فقد أشار جيلوفورد جيزنز الى سيادة ما أسماه « بالروابط البدائية » والتي تقوم على روابط الدم ، والعرق ، واللغة ، والدين والعادات (١) . وبنفس الطريقة وصف ادوارد شيلز المجتمعات التقليدية

---

G. Geertz, op. cit., pp. 112-113.

(١)

بأنها تتكون من تجمعات متفرقة تقترن على العرق ، والطائفة ، والمشاعية ، والدين واللغة . وهي تجمعات ليس لديها سوى شعور طفيف بالتوحد مع بعضها البعض أو مع الاطار القومي الذي تعيش فيه (٢) . وتشير هذه الآراء الى الرابطة التي يمكن أن تربط هذا الاتجاه بالاتجاه التعددى في صورته التي عرضت في الفصل السابق (٢) .

٢ - ركز علماء الاجتماع الذين يدرسون الاقليات على دراسة العلاقات بين الأجناس في تحليلهم للبناء الاجتماعى في المجتمعات المتقدمة . فقد كتب جونار ميردال Gunnar Myrdal عن وجود تمطين متصارعين من القيم في المجتمع الأمريكى يرتبط كل منهما بجماعة معينة . واقتدت سيطرة أحد هذين النمطين على النمط الآخر الى ما أسماه ميردال « بالعضة الأمريكية » (٤) . ولقد أشار لويد وارنر - قبل ميردال - الى وجود نمط للتدرج الاجتماعى غير ذلك النمط القائم على الطبقة والمكانة ، وهو التدرج القائم على نظام الطوائف حيث يوجد ضرب من التوازن بين نوعية العرق والوضع الذى يحتله الشخص فى نسق التدرج الاجتماعى (٥) . واهتم جون ركس Rex الذى كتب - فى وقت مبكر - مقالا عن المجتمع التعددى (٦)

---

E. Shilis, «On the Comparative Study of the New States», (٢)  
in Geertze (ed.), op. cit., p. 3.

(٣) يبدو أن قضية الانقسام العرقى قد ظهرت كقضية ثانوية فى الاتجاه التعددى الوظيفى ، حيث كان الاهتمام منصبا على تحليل التباين الاجتماعى - الثقافى . ولقد طور الباحثون الذين نهتم بأرائهم هنا هذه القضية الثانوية التى وصلت الى اتجاه تعددى جديد .

G. Myrdal, *The American Dilemma : Negro Problem and Modern Democracy*, Harper, New York, 1944. (٤)

L. Warner, «American Caste and Classe» A.J.S., Vol. 42, (٥)  
No. 2, 1936, pp. 324-232.

J. Rex, «The Theory of Plural Society», B.J.S. Vol. 10. (٦)  
No. 1, 1959, pp. 114-124.

Plural Society • باختبار نظرية ميردال في دراسة - اجراها مع روبرت مور Moore - عن المصالح العرقية المتصارعة في مدينة برمنجهام • وطور ركس في هذه الدراسة مفهوم الطبقات السكنية housing classes الذى يقوم على أسس عرقية • فكل جماعة عرقية تتجمع في نمط سكنى خاص، وتحاول بكل الوسائل ان تحد من فرص الجماعات الأخرى في الحصول على الأرض أو أى خدمات أخرى (٧) •

٣ - يميل بعض الدارسين الى اعتبار بعض المجتمعات المتقدمة - خاصة كندا والولايات المتحدة - مجتمعات تعددية على أساس الفروق العرقية بين الجماعات الأساسية التى تعيش في هذه المجتمعات • غير أنهم يذهبون الى القول بأن هذه المجتمعات قد حققت قدرا كبيرا من التكامل • ولقد انعكست هذه الرؤية النظرية على مجموعة من البحوث قدمت الى مؤتمر « التعددية في مجتمع ديموقراطى Pluralism in a Democratic society عقد في نيويورك عام ١٩٧٥ (٨) • فقد كان من أهداف المؤتمر التأكيد على ان الحياة الأمريكية تتكون من جماعات مختلفة تشبه الموزايكا ، تحتفظ كل منها بهويتها الخاصة ، وتساهم كل منها في تنوع التراث الأمريكى واثرائه في ذلك الوقت • ولقد تم تحقيق التكامل بين هذه الجماعات تحت زعامة الصفوة الانجليزية التى وضعت أسس الهجرة الى أمريكا ، وحمت القانون- والدستور وحرية التدين والعبادة في جو تنفصل فيه الكنيسة عن الدولة (٩) • وبالنسبة للمجتمع الكندى فقد تحدث جون بورتر عما أسماه بالموزايكا الرأسية ، حيث توجد علاقة بين التدرج الطبقي والتدرج السلالى ، الأمر

---

J. Rex and R. Moore, *Race, Community and Conflict*, (٧) Oxford University Press, London, 1967, p. 16.

(٨) ظهرت هذه البحوث في المجلد التالى :

Milvin M. Tumin and W.P. Platch (eds.) *Pluralism in A Democratic Society*, Praeger Publishers, N.Y., 1977.  
Ibid, The Introduction by M. Tumin, pp. V-Xiii

الذى أدى الى مزيد من الانقسام الثقافى والاقليمى ، يتكامل فقط من خلال  
حكومة فيدرالية مركزية (١٠) .

ومع ذلك فان ايا من هذه الاشارات لم تعتبر مشكلة الانقسام العرقى  
في العالم الثالث مشكلة اساسية ، ولكن وجودها يشير الى ان المسألة  
مطروحة على اى حال ، كما يشير أيضا الى العلاقة التى تربط الاتجاه  
«التعدى الوظيفى بالاتجاه التعدى العرقى» . ذلك أن معظم هذه الاشارات  
والآراء قد ظهرت أساسا من داخل الاتجاه التعدى الوظيفى . ولقد دفع  
هذا بعض الباحثين الى تتبع مشكلة الانقسامات العرقية واللغوية والاقليمية  
في مجتمعات العالم الثالث ليطوروا اتجاها تعديدا خاصا بهم . ولقد وجد  
هؤلاء الباحثون - وكما أشرت من قبل - في أعمال فيرنفال وكارنتون كون  
- البداية التى اشتقوا منها موقفهم العرقى . وسوف أعرض هنا باختصار  
لآراء كل من فيرنفال وكون على انها تمثل الجذور الفكرية لنظرية مجتمع  
الموزايكا التعددى .

كان فيرنفال أول من أشار الى مفهوم « المجتمع التعددى » وذلك  
في دراسته عن اقاليم جنوب شرق آسيا الادارية . والمجتمع التعددى عند  
فيرنفال هو مجتمع لا توجد به جماعات متكاملة Corporate groups  
- فلا يوجد لدى الافراد أهداف عامة أو جماعية . ففي مجتمعات جنوب شرق  
- آسيا - ويعمم فيرنفال ذلك القول على كل المجتمعات الادارية - يتكون المجتمع  
- من خليط من الجماعات العرقية التى « تختلط مع بعضها دون أن تقوم بينها  
- رابطة » ، ذلك لأن كل جماعة تحتفظ بدينها الخاص ، ولغتها الخاصة ، وافكارها  
- وأساليب حياتها الخاصة . ولا تلتقى هذه الجماعات الا فى السوق حيث  
تتم عمليات البيع والشراء ، وهى بذلك تكون مجتمعا تعديدا تعيش فيه  
- جماعات متلاصقة - ولكنها منقسمة على نفسها - داخل اطار سياسى  
واحد (١١) . وترتبط الطبيعة التعددية للمجتمع بالعوامل الآتية :

---

J. Porter, The Vertical Mosaic, University of Toronto (١٠)  
Press, 1965, p. 16.

J.S. Furnivall, Colonial Policy and Practices : A Compa- (١١)  
rative Study of Burma and Netherlands India, Cambridge  
University Press, 1948 p. 304.

١ - ارتباط الفرد بجماعته السلالية ارتباطا يفوق ارتباطه بالمجتمع ككل ، وهكذا تعيش الجماعات العرقية كبناءات اجتماعية منفصلة أو مستقلة (١٢) .

٢ - يوجد على المستوى الاقتصادى نوع من تقسيم العمل الاقتصادى بين الجماعات العرقية المختلفة ، حيث تتخصص كل جماعة عرقية فى نوع معين من المنتجات . وحتى داخل الجماعة الواحدة توجد جماعات فرعية تمارس كل منها حرفة معينة . (١٣) .

٣ - وفى هذه الظروف ، لا توجد فى مثل هذا المجتمع ارادة جماعية ، ولا يتجسد الطلب بشكل جماعى ، طالما أن كل جماعة تهتم فقط بتحقيق مصالحها الخاصة (١٤) .

ومثل هذه الجماعات المتفرقة لا تكون مجتمعا الا اذا وجدت قرة تمكنها من أن تلتقى على كلمة سواء . ويركز فيرنفال على السوق كأداة تكاملية فى المجتمع التعددى . غير أن السوق لا يخلق مصالح مشتركة ، ولا يجمع الناس على أهداف عامة بحيث يظهر نوع من الطلب الجماعى ، فنظام السوق لا يلغى قانون « البقاء للأصلح » الذى يحكم هذه الجماعات التعددية . (١٥) ويبدو أن فيرنفال يود أن يؤكد فى هذا الصدد على وجود « مشكلة نظام » ملحة فى مثل هذا النوع من المجتمعات . فلا بد أن يظهر شكل من أشكال التكامل بين كل هذه الجماعات المتفرقة . ويتم ذلك - من وجهة نظر فيرنفال - من خلال حكومة فيدرالية مركزية . ولا يتم ذلك بصورة عشوائية ، وإنما يتم من خلال عملية مرحلية تعب فيها مرحلة الحكم الاستعمارى دورا حيويا فى خلق التكامل ، وبعدها « تظهر مرحلة انتقالية

---

J.S. Furnivall, Netherlands India : A Study of Plural Economy, Cambridge University Press 1963, p. 446. (١٢)

Furnivall, 1948, p. 305. (١٣)

Furnivall, 1963, pp. 306-310. (١٤)

Ibid. p. 449. (١٥)

قبل أن تنتقل السلطة الى الحكومات الشعبية الوطنية ، (١٦) . ومع ذلك نجد فيرنفال يؤكد - من الناحية النظرية - على أربعة مصادر للتكامل : الطائفة ، والقانون ، والقومية ، والنظام الفيدرالي (١٧) .

وجاءت الخطوة الثانية في تطوير هذه النظرية من كارلتون كون في دراسته الشهيرة عن الشرق الأوسط (١٨) . صور كون مجتمعات الشرق الأوسط على أنها مجتمعات تشبه القافلة المتحركة ( الكارافان ) . فهي صورة متعددة الألوان ، أو موزايكا متعددة الألوان . وأساس هذا التعدد هو تقسيم العمل القائم على العرق أو السلالة ، حيث تمتن كل جماعة عرقية بمهنة معينة ، ولقد كتب كارلتون كون في هذا الصدد يقول :

« ينتظم الناس في مجتمعات الشرق الأوسط في نسق اجتماعي معقد يقوم على تقسيم العمل العرقي . فقد استطاع كل أعضاء جماعة أن يشتقوا لأنفسهم تقنيات معينة ومهارة يتقنوها اتقاناً من الطراز الأول . وهم يحافظون على هذه التقنيات وتلك المهارة من خلال العيش سوياً ، والاحتفال بالعطلات في تجمعات مستقلة ، وتربية أطفالهم على فكرة أن عليهم أن يتعلموا حرفة معينة . » (١٩) .

وأضاف في مكان آخر :

« يشعر أعضاء كل وحدة عرقية بالحاجة الى توحيد أنفسهم مع تشكيل من الرموز ، فإذا كان لكل جماعة من هذه الجماعات تميز عرقي معين ، فإن هذا التميز يتدعم من خلال أساليب سلوكية خاصة كان تنتج كل جماعة أسلوباً معيناً في قص الشعر ، وارتداء أنواع معينة من الحلى ، والسلوك بطريقة متميزة » (٢٠) .

---

Furnivall, 1948, pp. 485-505. (١٦)

Furnivall, 1963, pp. 464-469. (١٧)

C. Coon, CARAVAN : The Story of the Middle East, (١٨)  
Rinehart and Winston, N.Y. 1958, 1st published in 1951.

Ibid., p. 3 (١٩)

Ibid., p. 157. (٢٠)

أما المصدر الثانى للتمددية فى مجتمعات الشرق الأوسط فإنه يرتبط بوجود ثلاثة أنماط متميزة من الجماعات المحلية المنعزلة بعضها عن البعض الآخر وهى : المخيم البدوى ، والقرية ، والمدينة . فكل وحدة من هذه الوحدات تبدو وكأنها مستقلة عن الوحدات الأخرى ، بل أننا يمكن أن نعثر داخل وحدة معينة منها على جماعات مختلفة منقسمة بعضها على البعض الآخر ، ولا يوجد بين هذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من الاتصال (٢١) . ويبقى مصدر ثالث لهذه الوحدات الثلاثة سوى قدر طفيف من بالانقسام بين ما يطلق عليهم كون « أهل الوداعة » ، *tames* ، وأهل العجرفة ، *insolent* . انقسم الأول هم جموع السكان الخاضعين للسلطات داخل كل وحدة إجتماعية من الوحدات الثلاثة سائلة الذكر ، أما القسم الثانى فهم سكان المرتفعات الذين يطورون نوعا من الحكم الذاتى ويشكلون مصدر خوف وقلق للسلطة الحاكمة مثل الدوروز والاكراد والبربر (٢٢).

وكل هذه الانقسامات هى التى تحول مجتمعات الشرق الأوسط الى ما يشبه « القافلة المتحركة » ، او لوحة الموزايكا التى تحوى ألوانا متعددة . والحكومة المركزية هى التى تلم شمل مثل هذا المجتمع . ويذهب كون فى هذا الصدد الى القول بأن حكومات مجتمعات الشرق الأوسط التقليدية تقوم على نفس المبادئ التى يقوم عليها بناء القرية او المدينة ، فكل حكومة تتكون من مجموعات من الافراد لكل جماعة منها حياتها الخاصة ، وتوازنها الداخلى الخاص بها . ولا يجتمع هؤلاء الافراد سوى الا بدافع الحاجة المشتركة للتجارة والدفاع (٢٣) . الحكومة تتكون اذن من مجموعة من الصفوات تحقق بينها توازنا داخليا يسير على نفس خطوط التوازن التى يقوم عليها توازن مجتمع القرية او المدينة . ويتضمن ذلك القول بأن جماعات الصفوة فى الوحدات المحلية والحضرية والبدوية تقوم على نفس المبادئ التى تقوم عليها الحكومة المركزية ، فهى جماعات تجمعها فقط المصالح المشتركة مع

Ibid., p. 171-196.

(٢١).

Ibid., pp. 292-321.

(٢٢)

Ibid., p. 264.

(٢٣).

الاحتفاظ بالاطار الانتقاسى الذى تعيش فيه • واذا كان النسق السياسى - سواء فى مستواه القومى أو المحلى - هو النسق الأساسى فى تحقيق التكامل فى هذا النوع من المجتمعات ، إلا أن هناك بعض الميكانيزمات الاجتماعية الأخرى التى تسهم فى تحقيق التكامل منها : نظام الزكاة ، والتنظيمات الصوفية التى يجتمع فيها أفراد ينتمون الى جماعات عرقية مختلفة ، وكذلك الطقوس المتوارثة التى تجمع عناصر مختلفة من ديانات مختلفة (٢٤) •

ولقد تبنى بعض المهتمين بمجتمعات جزر الهند الغربية West Indies ومجتمعات افريقيا مفهوم فيرنفال عن المجتمع التعددى محاولين تطبيقه على هذه المجتمعات ، بينما تبنى بعض المهتمين بمجتمعات الشرق الأوسط رؤية كارلتون كرن عن مجتمع الموزايكا محاولين تطويرها وتطبيقها على البناء الاجتماعى المعاصر لهذه المجتمعات • وتبلورت بناء على ذلك مجموعة من الآراء النظرية التى شكلت الاتجاه الذى نعرض له فى هذا الفصل • وسوف أعرض فيما يلى للقضايا الأساسية التى تشكل الاطار النظرى لنظرية مجتمع الموزايكا التعددى •

### ثانيا : القضايا الأساسية لنظرية مجتمع الموزايكا

ظهرت الأعمال التى ندرج تحت هذه النظرية - وكما هو واضح من العرض السابق - فى مجموعتين : أعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات افريقيا ومجتمعات جزر الهند الغربية ، وأعمال الباحثين الذين اهتموا بمجتمعات الشرق الأوسط • ومن الباحثين الذين ينتمون الى المجموعة الأولى ام • ج سميت M. G. Smith وليوكيوبر Leo Kuper وفان دن برج Van Den Berghe وغيرهم ممن اهتم بمجتمعات افريقيا، أما المجموعة الثانية فتضم نيوفانهويزه Nieuwenhuijze وايليا حريق وغيرهم ممن اهتموا

Ibid. p. 163.

(٢٤)

بمجتمعات الشرق الأوسط (٢٥) ، وبرغم أن هاتين المجموعتين تعملان بشكل مستقل ، إلا أن الآراء التي ظهرت هنا وهناك متشابهة إلى حد كبير على ما سيظهر من العرض القادم ، الذي ينصب على إبراز آراء هؤلاء الباحثين حول القضايا الأساسية التي نهتم بها في هذا التحليل النظري :

- ( أ ) الرؤية العامة للبناء الاجتماعي لمجتمعات العالم الثالث ،
- ( ب ) شكل التدرج الاجتماعي والجماعات الطبقيّة داخل هذا البناء ،
- ( ج ) الطابع الذي يتشكل من خلاله البناء السياسي وجماعات الصفوة .

### ( أ ) البناء الاجتماعي لمجتمع الموزايكا

يجمع أنصار هذا الاتجاه على أن مجتمعات العالم الثالث في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية تتسم بأنها مجتمعات متعددة الفئات multi-categorical فهي تضم تجمعات متفرقة من الأفراد تعيش داخل نطاق سياسي واحد . ويمكن جهر التعددية في نظر سميث في وجود خلاقات عميقة الجنور بين أفراد المجتمع ، تنبع أساسا من اختلاف ثقافتهم ، وأشكال ممارساتهم النظامية . وينعكس ذلك على البناء الاجتماعي فتتضح فيه مظاهر عدم الاستقرار ومظاهر الانشقاق (٢٦) . وأكد على نفس هذا الطابع نيوفانهويزم فيما يتعلق بمجتمعات الشرق الأوسط . فهذه المجتمعات لا تمتلك أبنية اجتماعية مستقرة طالما أن المجتمع يتكون من وحدات مستقلة ذات أبنية متوازية أكثر منها متفاعلة . ومصدر ذلك هو وجود خلاقات في العقيدة، واللغة

---

(٢٥) سوف أشير للجماعة الأولى بـ «مجموعة إفريقيا» وللجماعة الثانية «مجموعة الشرق الأوسط» ، مع الإشارة إلى اسم أي من الباحثين في كلتا المجموعتين .

(٢٦) M.G. Smith, «Institutional and Political Conditions of Pluralism» in L. Kuper and M.G. Smith (eds.) *Pluralism in Africa*, University of California Press, Los Angeles, 1969, p. 27.

والمنطقة الجغرافية التي تعيش فيها كل جماعة . ويتصف هذا المجتمع بأنه مجتمع مركب composite . وبعبارة أخرى فإنه مجتمع يتكون من وحدات تم تجميعها بجوار بعضها البعض ، بحيث تحافظ كل وحدة على تكاملها الداخلي ، واستقلالها الذاتي ، وحدودها ككيان ثقافي (٢٧) .

ويعتقد الباحثون من مجموعة افريقيا أن صياغتهم لمفهوم المجتمع التعددي تختلف عن صياغة فيرنفال من حيث أنها تقدم نموذجا أكثر مرونة وأكثر عمومية ، فضلا عن حيادية القيمي (٢٨) . ولقد جاء هذا الادعاء بالعمومية من التفرقة التي أقامها سميث بين ثلاثة مستويات للتعددية : التعددية الثقافية ، والتعددية الاجتماعية ، والتعددية البنائية . وتشير التعددية الثقافية الى وجود فروق ثقافية دون وجود انقسام جمعي في المجتمع . وعندما تلتقى هذه الفروق الثقافية مع الانقسامات الاجتماعية بين جماعات مغتقة فاننا نكون بصدد المستوى الثاني من التعددية . أما المستوى الثالث فإنه لا يشير فقط الى الانقسامات والخلافات التي توجد بين الجماعات الأساسية في المجتمع ، وإنما يشير أيضا الى مظاهر الانقسام والخلاف داخل كل جماعة على حدة (٢٩) . وفي ضوء هذه المستويات الثلاثة ، تعرف المجتمعات كلها درجة من درجات التعددية ، ونأتي الفروق بين المجتمعات في درجة الانقسام ومعدله . ويبدو أن سميث يريد هنا أن يلصق المستوى الثاني والمستوى الثالث للتعددية بمجتمعات العالم الثالث التي يبلغ فيها التساق

---

C.A.O. Van Nieuwenhuijze, **Social Stratification and The Middle East**, Leiden, Brill, 1965, pp. 9-10. (٢٧)

Leo Kuper, **Race, Class and Power**, Buckworth, 1974, pp. 239-240. (٢٨)

M. G. Smith, «Some Development in the Analytical Framework of Pluralism», in Kuper and Smith (eds.) *op. cit.*, p. 440. (٢٩)

بين الجماعات العرقية مداه (٢٠) . في حين توجد التعددية بمعناها الأول في المجتمعات الغربية المتقدمة والتي تعنى النسبية الثقافية ، وهي نمطا مثاليا يجب أن تصبو المجتمعات التي تعرف أشكالا مغايرة للتعددية الى الوصول اليه .

وتقترب مجموعة الشرق الأوسط من هذا الموقف السابق . فتقسيم العمل العرقي الذي أبرزه كارلتون كون ليس المصدر الأساسي للتعددية في مجتمع الموزايكا ، بل هناك أيضا الخلافات الدينية واللغوية والجغرافية فضلا عن الصراع على السلطة . وتتوازي هذه الانقسامات جميعا بحيث اذا ظهرت لدى جماعة خاصية عرقية معينة تظهر لديها خصائص أخرى كأن تحدث لغة معينة وتعيش في نطاق جغرافي معين وتدين بدين معين (٢١) . ولكن مجموعة الشرق الأوسط قد أكدت على صياغة كارلتون كون فيما يتعلق بالوحدات الأساسية التي يتكون منها البناء الاجتماعي والانقسامات التي تعرفها هذه الوحدات . فقد فسق نيوفانهويزه بين نوعين أساسيين من الانقسامات في مجتمعات الشرق الأوسط . النوع الأول : هو الانقسامات الأفقية بين الوحدات الأساسية التي يتكون منها المجتمع ( المجتمع الريفي والمجتمع الحضري والمجتمع البدوي ) ، والنوع الثاني : هو الانقسامات الرأسية داخل كل وحدة من هذه الوحدات . وأهم هذه الانقسامات الرأسية

---

(٢٠) يؤكد بعض الباحثين من مجموعة افريقيا أن مجتمعات افريقيا تعرف التعددية بمستوياتها الثلاثة . منهم على سبيل المثال على مازروي Ali Mazrui الذي ذهب الى القول بأن أوغندا يمكن أن تؤخذ كمثال طرازي على وجود التعددية بمستوياتها الثلاثة العرقية والثقافية الدينية والاجتماعية . انظر :

Ali Mazrui «Pluralism and National Integration» in Ibid.  
p. 332.

Iliya Harik, «The Ethnic Revolution and Political Integration in the Middle East», I.J.M.E.S. Vol. 3, 1972, pp. 306-8. (٣١).

هو الانقسام بين الصفرة والجمهير ، وهو انقسام يظهر داخل كل وحدة،  
من مكونات البناء الاجتماعى ، وداخل البناء الاجتماعى برمته (٢٢) .

ويتضح من هذا أن هناك إجماعا بين أنصار هذا الاتجاه على الخصائص العامة التى تميز البناء الاجتماعى فى مجتمع الموزايكا التعددى ، تلك الخصائص التى تنحصر فى عدم التجانس وعدم التكامل وعدم الاستمرارية وسيادة مظاهر الشقاق والخلاف بين الجماعات التى تكون البناء الاجتماعى . والمحقق أن أنصار الاتجاه الوظيفى التعددى قد أكدوا كل هذه الخصائص ، غير أن الخلاف بينهم وبين أنصار نظرية مجتمع الموزايكا ينحصر فى أنهم قد أرجعوا هذه الخصائص الى تباين مكونات البناء الاجتماعى الناتج عن استجابة هذا البناء للثقافة الحديثة والنظم الحديثة ، وبهذه الطريقة أصبحت ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة لاحقة *epiphenomenon* وتحليلاتهم . أما أنصار نظرية مجتمع الموزايكا فإنهم يعتبرون ظاهرة الانقسام العرقى ظاهرة أصلية وجوهرية *sui-generis* فى البناء الاجتماعى للمجتمعات النامية ، ومن ثم فإنها السبب الكامن خلف أى مظهر للانقسام وعدم التكامل والاستمرارية فى هذه المجتمعات . ومع ذلك فإن هناك مصدرا للتشابه بين شقى الاتجاه التعددى يرتبط بتحول نمط معين من المجتمع التعددى الى نمط آخر بصور على أنه نمط مثالى . فقد لاحظنا فى الفصل السابق أن الصورة المثلى التى يجب أن تتحول اليها المجتمعات النامية هى صورة المجتمع التعددى الديمقراطى ، ويتضح هنا أن أنصار نظرية مجتمع الموزايكا يميلون الى المقارنة بين المجتمعات التى تتوازى فيها الانقسامات العرقية مع الانقسامات الثقافية والاجتماعية ، وتلك التى لا تظهر فيها مثل هذه الانقسامات والتى تتكامل فيها الجماعات العرقية مع وجود قدر من النسبية الثقافية ، وهذه هى الصورة المثلى للمجتمع التى يجب على مجتمع الموزايكا

أن يتوق الى الوصول اليها ، وتتجسد هذه الصورة المثلى في المجتمعات الغربية الديمقراطية . ويدل ذلك على أن المنطلق الايديولوجي لكلا الاتجاهين واحد ، برغم اختلاف بعض الأسس المعرفية لكل منهما .

### ( ب ) الندرج الاجتماعي والجماعات الطبقيّة :

طالما أن المجتمع التعددي هذا يقوم على الانقسام العرقي ، فإنه يترتب على ذلك أن يكون للندرج الاجتماعي داخله طابع خاص ، يرتبط بطابعه التعددي . فمن الطبيعي أن يؤكد الباحثون هنا على وجود خطوط للندرج الاجتماعي لا تقوم على أساس طبقي ، بل تقوم على أساس عرقي ، حيث يظهر نوع من التوازن بين التكوين الطبقي للمجتمع وتكوينه العرقي . وفي هذه الظروف ، فإن تحول المجتمع وتحديثه وتكامله يرتفع بظهور نسق للندرج الاجتماعي الطبقي داخل هذا المجتمع بحيث تظهر خطوط للانقسام غير تلك القائمة على العرق .

ومن هذا المنطق العام يذهب ليوكيوبر - من مجموعة افريقيا - الى أن المواجهة الرئيسية في المجتمع التعددي ليست مواجهة بين الطبقات ، وإنما بين جنس race مسيطر وجنس أو أجناس خاضعة . وهذا هو السبب وراء عدم تضامن الطبقة العاملة في هذه المجتمعات ، ووراء الخلافات الحادة التي تظهر بين أعضائها . فهذه الطبقة تتكون من جماعات عاملة من أجناس مختلفة أو جماعات سلالية مختلفة تكن العداء لبعضها البعض الآخر . والظاهر أن ليوكيوبر يرفض مفهوم الطبقة كمقولة تحليلية لهذه المجتمعات حيث كتب يقول :

« ان التأكيد على الطبقة مقبول تماما ومن وجهة النظر السياسية والايديولوجية . . . أما على مستوى النظرية . . . فإن مفهوم الجنس والطبقة

يختلفان إلى حد كبير ٠٠ ومن الصعب أن نفهم التبرير الكامن خلف اعتبار المفاهيم المرتبطة بالطبقة مفاهيم حاسمة ، (٢٣) .

وبناء على ذلك يرفض كيوبر نظام التدرج الاجتماعي القائم على الطبقة ويستبداه بالتدرج القائم على العلاقات العرقية . ويصبح ذلك الأخير متغيرا ذا دلالة عندما يتحول إلى مبدأ تفتطم حوله النظم السياسية الاجتماعية (٢٤) . وفي هذه الحالة يتحدد التدرج الاجتماعي من خلال العلاقات بين الجماعات العرقية ، وتتحول علاقات المكانة والطبقة إلى مرتبة أدنى .

ومع ذلك ، فإن بعض أعضاء جماعة افريقيا يميلون إلى إضافة العلاقات الطبقيّة كمصدر آخر من مصادر الانشقاق في المجتمعات التعددية . فقد كتب فان دن برج يقول : « أفضل النظر إلى التعددية كمتغير يشتمل على مظاهر للتدرج قائمة على « الجنس » أو « الطائفة » أو الطبقة المغلقة أو الطبقة ٠٠ . وطالما أن الطبقات تعد بمثابة جماعات متكاملة Corporate groups فإنها سوف تطوّر بعض الخلافات البنائية فضلا عن وجود بناء تنظيمي خاص يرتبط بكل طبقة ، (٢٥) . ويبدو أن ظهور التدرج الطبقي في المجتمع التعددي الذي تقوم التعددية فيه على الانقسام العرقي ، يرتبط بتحول هذا المجتمع من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث . وبرغم أن ظهور التدرج الطبقي يعمل كأداة تكاملية حيث يجتمع - في طبقة واحدة - أفراد من جماعات سلالية مختلفة ، إلا أن الطبقة لا تعد مقولة تحليلية ذات أهمية طالما أن هؤلاء الأفراد يظهرون من الولاء لجماعتهم العرقية أكثر مما يظهرونه للطبقة التي ينتمون إليها . ولا تصبح الطبقة مقولة تحليلية إلا إذا تعدى الولاء لها - أو توازى على الأقل مع - الولاء للجماعة العرقية .

---

Leo Kuper, 1974, p. 224.

(٢٣)

Ibid., p. 224.

(٢٤)

Van Den Berghe, «Pluralism and Polity : A Theoretical Explanation», in Kuper and Smith (eds.) op. cit., p. 68.

(٢٥)

وتتميل مجموعة الشرق الأوسط الى تبنى وجهة نظر مشابهة فالفكرة الأساسية التي يدور حولها رأى فان نيوفانهويزه تتركز حول القول بأن مجتمعات الشرق الأوسط لا تعرف التدرج الطبقي بسبب التعددية الصاربة بجزورها في هذه المجتمعات ، والتي تقوم على الانقسام السلالي والغوى والعرقى والاقليمى (٢٦) . والنمط التدرجى الذى تعرفه هذه المجتمعات هو ذلك النمط القائم على الانفصال بين الصفوة والجماهير (٢٧) . ويظهر ذلك الانقسام على المستوى القومى ، وعلى مستوى كل وحدة اجتماعية من الوحدات المكونة لبناء الاجتماعى . ويظهر هذا النمط من التدرج بسبب عاملين رئيسيين (٢٨) :

الأول : انه بالرغم من وجود ارهاصات بداية تكون طبقة وسطى في مجتمعات الشرق الأوسط ، الا ان هذه الطبقة لم تظهر بعد بشكل يجعلنا نصفها بأنها طبقة مستقلة . وتتمثل ارهاصات هذه الطبقة في طبقة «الافندية» ، وفئات الفنيين والبيروقراطيين والباحثين ، وهى فئات لم تتشكل بعد بشكل جيد ، ولم تحقق أى منها أى قدر من التماسك الداخلى .

الثانى : ان مجتمعات الموزايكا التعددية التى تتكون من فئات مشتتة لاتتشكل

---

(٣٦) لما كان نيوفانهويزه قد عنون مقاله المطول « التدرج الاجتماعى والشرق الأوسط » فانه ذهب الى القول بأنه كان من الافضل له أن يبحث عن كلمة اخرى غير كلمة التدرج لانها لا تصدق مائة بالمائة على الشكل الذى يتشكل به المجتمع فى الشرق الأوسط ، ولعدم وجود مفاهيم بديلة ، فقد قرر استخدامها مع قدر كبير من التحفظ والحذر . انظر مقاله السابق الاشارة اليه ، ص ١١ .

(٣٧) استخدم نيوفانهويزه مفهوم « صفوة القوة » ، غير أنه لم يستخدمه بنفس استخدام رايت ميلز ، من حيث أن صفوة القوة عند نيوفانهويزه ، قد تكون اقلية سلالية .

Nieuwenhuijze, op. cit., pp. 25 ff.

(٣٨)

فيها طبقة عاملة • ولقد اورد نيوفانهويزه الاسباب التالية لعدم تشكيل هذه الطبقة في مجتمعات الشرق الأوسط :

( ١ ) سوف لا يؤدي انتشار التكنولوجيا الى احداث استقطاب في المجتمع البدوى • وحتى اذا حدث هذا الاستقطاب بين طبقة البروليتاريا وبين طبقة البرجوازية ، فان الاولى لن تثور على الثانية التي تمثل صفوة القوة القائمة والتي تستمد قوتها من اطر تقليدية •

( ب ) يبدو الموقف في القرية وكأنه يحمل بين طياته عناصر من العبودية- Serfdom • فعلاقة الفلاحين بكبار الملاك لا تقوم أصلا على علاقة عداة وإنما تقوم على علاقة ولاء •

( ج ) ان الجماهير الغنيرة الموجودة في المدن ليسوا عمالا في تركيبهم العقلي ، وان كانوا يعملون في مهن عمالية ولقد كانت هذه الجماهير موجودة منذ امد بعيد حتى قبل الصناعة الحديثة •

ويبدو الأمر هنا وكأن نيوفانهويزه يحاول ان يربط بين ظهور الطبقة الوسطى وبين حدوث الاستقطاب • وكان تبلور الاستقطاب الطبقي يفرض ظهور فئة وسطى وهو أمر يلغى فكرة الاستقطاب ذاتها • وعلى أية حال فانه يسعى هنا الى اثبات فكرته الأساسية عن الانفصال بين الصفوة والجماهير فالصفوة لم تتحول الى طبقة عليا ، ولم تتطور من بين صفوف الجماهير طبقة عاملة توجه التدرج في خط مغاير • على ان اشارة نيوفانهويزه الى ارهاصات وجود الطبقة الوسطى قد يفسر على أن هذه الطبقة الجديدة هي التي ستخلق الاستقطاب وتكون أحد أطرافه • ففي الوقت الذي تتشكل فيه هذه الطبقة ، فان الصفوة التقليدية ستترك لها زمام الأمور ، وتصبح الطبقة الوسطى بمثابة صفوة جديدة حاكمة •

ويرتبط نمو الطبقة الوسطى بتحول المجتمع من اطاره التقليدى الى

الاطار الحديث ، وان كان هذا النمو للطبقة الوسطى لا ينفى الانفصال التقليدى بين الصفوة والجماهير ، ولا ينفى تماما الطابع التعددى اجتمع الموزايكا . وقد ذهب ايليا حريق هذا المذهب فى دراسة حديثة عن التعبئة السياسية فى الريف المصرى (٢٩) . يوافق حريق على رأى نيوفانويوز المتعلق بالانقسام بين الصفوة والجماهير ، الا أنه يقرر أن مجتمعات الشرق الاوسط قد عرفت بعض قطاعات الطبقة الوسطى . ففيما يتعاق بالمجتمع القروى - على سبيل المثال - نجد أن ظهور ملاك الأرض ، وتجار الحاصلات الزراعية الذين أصبحوا أكثر ارتباطا بالمراكز الحضرية ، الى الجانب تغيرات أخر ( مثل تحوّل معظم السكان الى زارعين بالمشاركة ، ومؤجرين وعمال زراعيين وصغار ملاك ) كل هذه الظروف أدت الى خلق نسق للتدرج الاجتماعى داخل القرية تحتل فيه الفئات الوسطى مكانا بارزا (٤٠) . ولقد ترتب على ذلك - ضمن تغييرات أخر - أن أصبح الريفى أكثر تكاملا مع المجتمع الحضرى ، ومع الاطار القومى بعامه . ومع ذلك فان ظهور التدرج الطبقي لا ينفى الطابع الاساسى لمجتمع الموزايكا القائم على الانقسام الاقليمى والسلاى والقوى ، بل انه يضيف عنصرا جديدا الى هذا الطابع ، بحيث تصبح مظاهر الانقسام أكثر تعددا ، وتصبح عملية فرض الوحدة على هذا التعدد أمرا ضروريا ، على ما سنرى فيما بعد .

### ( ج ) البناء السياسى وجماعات الصفوة :

لاشك ان بناء اجتماعيا بهذا الشكل المتعدد يفرض مشكلة نظام ملحة . فلكى تشكل هذه الوحدات المكونة للبناء الاجتماعى مجتمعا لابد ان يحدث بينها قدر من التكامل يجعل قيام المجتمع أمرا ممكنا . فما الذى

---

I. Harik, *The Political Mobilization of Pesants : A Study* (٢٩)  
of an Egyptian Community, Indiana University Press,  
Bloomington and London, 1974.

Ibid., p. 18.

(٤٠).

يحقق هذا التكامل داخل مجتمع الموزايكا اذن ؟ يكاد الدارسون يجمعون على ان مجتمع الموزايكا يحقق تكامله - على المستوى القومي والاقليمي على حد سواء - من خلال قوة خارجية قهرية ، تتمثل في جماعة صفوة • غير ان رؤية طبيعة هذه الصفوة والشكل الذى تتكون من خلاله تختلف من مجموعة الى اخرى •

فمجموعة افريقيا تفرق بين مجتمع الموزايكا التعددى اللامتجانس وبين المجتمع التعددى المتجانس • ففى هذا الأخير يقوم النظام الاجتماعى العام على ما يطلق عليه سميث الاندماج المتماثل *uniform incorporation* ، أما فى مجتمع الموزايكا فان النظام الاجتماعى العام يقوم على الاندماج المتوازى أو التباينى *equivalent or differential incorporation* • وفى مثل هذا المجتمع لا تقوم النظم السياسية على التكامل • وانما تقوم على التنظيم *regulation* بمعنى أن النظم السياسية لا تنتج من طابع تكاملى كامن فى بناء المجتمع ذاته ، وانما تظهر أساسا لتحقيق هذا التكامل • ويترتب على ذلك أن تؤيم على هذه النظم صفوة معينة • وتتكون هذه الصفوة فى الغالب من اقلية عرقية متميزة ثقافيا ، *Culturally distinct numerical minority* ، وهى كجماعة مشتركة لها مطلق الحرية فى حفظ النظام • وطالما أن سكان مجتمع الموزايكا التعددى لا يعتبرون مواطنين تحت حكم هذه الصفوة ، وانما خاضعون ، فان الدولة فى هذه الحالة لا تعبر عن رأى جمعى ، وانما تعمل بمثابة هيكل خارجى من صنع الجماعة المسيطرة (٤١) • وطالما أن الصفوة الحاكمة أو الاقلية الحاكمة تستمد شرعيتها من وجود الانقسامات فى المجتمع التعددى ، فان استمرارها يرتبط باستمرار هذه الانقسامات (٤٢) • وكأن استمرار الانقسامات يعمل كمستلزم أساسى لاستمرار الاقلية فى الحكم •

---

M. G. Smith, «Institution» : op. cit., pp. 32-33 (٤١)  
Ibid., p. 54. (٤٢)

وذلك لأن هذه الأقلية ما هي إلا أحد الجماعات الثقافية المتميزة التي تتمتع،  
بنفوذ اقتصادى وسياسى . هذا فضلا عن أن تحول المجتمع يجب أن يسير  
نحو التكامل القائم على الاندماج التماثل حيث تصبح كل الجماعات العرقية  
على قدم المساواة وحيث يصبح النظام السياسى نتيجة طبيعية للتكامل ،  
وليس أداة لفرضه .

وينفق نيوفانهويزه مع سميث على سيطرة الصفوة على الجهاز  
السياسى فى مجتمع الموزايكا ، غير أنه يختلف معه حول طبيعة هذه الصفوة  
أو الجماعة المسيطرة . فهي عنده أغلبية متميزة ثقافيا ، وليست أقلية متميزة  
ثقافيا . فالجماعة العرقية التي تمثل الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع هي  
التي تسيطر على مقدرات النظام السياسى (٤٣) . ولأن هذه الجماعة العرقية  
المسيطرة تعتبر أغلبية ديموجرافية ، فانها لا تشكل جميعها الصفوة الحاكمة  
أو صفوة القوة ، وانما تنحدر تلك الأخيرة من الاغلبية الديموجرافية التي  
تكون الجماعة العرقية المسيطرة (٤٤) . ويتضمن ذلك القول بأن بقية  
الجماعات العرقية تتحول الى مجرد اقلية داخل مجتمع الموزايكا التعددى .  
وتصبح مهمة الصفوة خلق التكامل بين وجود هذه الاقلية وبين وجودها  
كمدافع عن مصالح الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع . هذا فضلا عن تحقيق  
التكامل بين وحدات البناء الاجتماعى المنعزلة : المجتمع البدوى ، والمجتمع  
الريفى ، والمجتمع الحضرى ، وتحقق الصفوة هذا التكامل من خلال السيطرة  
التي تتبدى فى استخدام القوة الفيزيقية force ، غير أنها تحاول فى  
ذات الوقت خلق ضرب من ضروب التوازى الثقافى - الاجتماعى بين الكيانات

---

Nieuwenhuijze, op. cit, p. 9.

(٤٣)

(٤٤) ولقد اقترب نيوفانهويزه هنا من صياغة سميث حيث ذهب الى أن  
هذه الصفوة تتحول فى الممارسة العملية الى أقلية عدديه ولكنها أقلية  
عددية لا تمثل جماعة عرقية متميزة ، وانما تنحدر من الجماعة التي  
تكون الاغلبية الديموجرافية فى المجتمع .

المكونة للمجتمع • ومن أهم سمات جماعة الصفوة هذه أنها فئة مستهلكة ، وليست منتجة ، فهي تقوم بتقديم خدماتها في المحافظة على النظام العام في المجتمع نظير حصولها على جانب من ثروة المجتمع (٤٥) • ولكن ذلك لا يعني أن الصفوة جماعة متكاملة في حد ذاتها ، انها تخضع كجماعة لقاعدة المجتمع التعددي ، فيظهر بين اعضائها تنافس للحصول على الثروة •

ولكن تركيب الصفوة في مجتمع الموزايكا قد يتجاوز مرحلة سيطرة الصفوة المنحدرة من الاغلبية الديموجرافية ، بحيث يعكس التركيب العرقي في المجتمع • ويحدث هذا عندما يحقق المجتمع التعددي درجة ملحوظة من التكامل • فقد ذهب ايليا حريق في حديث عن المجتمع اللبناني - وهو عنده نموذج لما يجب أن تكون عليه مجتمعات الشرق الأوسط - الى أن الثورة في مجال الاتصال فضلا عن نشأة الدول الحديثة قد أدت الى كسر نمط الموزايكا القائم حيث خلقت هذه الظروف صفوة عمقت الانفصال التقليدي بين الصفوة والجماهير ، وعمقت في ذات الوقت وعيها بهويتها ، الأمر الذي أدى الى مزيد من الانقسام في مجتمع الموزايكا • ومن ناحية أخرى لم تؤد الحركات القومية الى تحقيق التكامل في مجتمع الموزايكا ، بل عمقت الخلاف من زاوية جديدة تتعلق بالصراع الفكري والايديولوجي • وفي هذه الظروف لابد أن يتحقق التكامل من خلال توازن بين الجماعات العرقية المختلفة الموجودة في المجتمع • ويتم ذلك عن طريق ضرب من ضروب الهندسة الاجتماعية يتم من خلاله تمثيل كل الجماعات العرقية - بنسب مختلفة - في الصفوة الحاكمة • وفي هذه الحالة تصبح الصفوة انعكاسا للمجتمع وليست شيئا مفروضا عليه من الخارج • والمثال الطرازي على هذا النوع من الهندسة الاجتماعية هو نظام الحكم في لبنان الذي يقوم على التوازن بين المسلمين والمسيحيين

كجماعتين عرقيتين رئيسيتين في المجتمع اللبناني، وهو مثال يجب أن يحتذى في كل مجتمعات الشرق الأوسط (٤٦) .

ويشير حديث ايليا جريق هنا نقطة أخرى تتصل بتصور أنصار نظرية مجتمع الموزايكا للصورة المثلى التي يجب أن يتحول إليها مجتمع الموزايكا . المحقق أن صورة المجتمع الغربي الذي حقق قدرا كبيرا من التجانس والتكامل هي الصورة المثالية والمعيارية التي يجب أن يصل إليها مجتمع الموزايكا . ولقد اهتمت مجموعة افريقيا أكثر من مجموعة الشرق الأوسط بالحديث عن النمط المثالي الذي يجب أن يصل إليه المجتمع التعددي . وقد أشرت من قبل إلى التفرقة التي أقامها سميث بين النظام العام الذي يقوم على الاندماج المتماثل وذلك الذي يقوم على الاندماج المتوازي . ويمثل النمط الأول الصورة المثالية التي يجب أن يتحول إليها النمط الثاني . ويتم ذلك من خلال مجموعة من الاجراءات أهمها قبول فكرة المساواة السياسية والاجتماعية كجزء من النظام القائم ، والتقليل من الامتيازات الممنوحة لجماعات عرقية معينة ، واعطاء فرص متساوية لكل المجموعات الثقافية في المجتمع ، وأولا وأخيرا نشر الافكار المتصلة بالحرية والديموقراطية (٤٧) . وبغض النظر الطريقة يؤكد ليوكيوبر على تحول المجتمعات التعددية من مجتمعات لا تعرف الاستمرارية والمساواة إلى مجتمعات مستقرة مستثمرة العلاقات بها قدر كبير من المساواة بين جماعاتها العرقية المختلفة ، الأمر الذي يؤدي إلى تحول البناء السياسي من بناء يقوم على فرض القوة فرضا إلى بناء يقرم على توزيع القوة (٤٨) . وبعبارة فإن دن برج فإن هذه المجتمعات التعددية يجب أن

---

I. Harik, «The Ethnic Revolution», op. cit., p. 306 (٤٦)

M.G. Smith, «Institutional op. cit, p. 60. (٤٧)

Leo Kuper, «Ethnic and Racial Pluralism», op. cit., pp. 469-79. (٤٨)

تتحول من النظم القائمة على الاستعباد Despotie الى نظم تعرف  
صورة من صور الحكم الديموقراطى (٤٩) .

أما جماعة الشرق الأوسط فانها تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى .  
حقيقة أنها تعتبر المجتمعات الغربية المتقدمة بمثابة النمط المثالى للمجتمعات  
الذى يجب أن تصل اليه مجتمعات الموزايكا . ولكن نجد أن نيوفانهويزه  
يؤكد على استمرارية الطابع التقليدى لمجتمعات الشرق الأوسط، برغم دخول بعض  
العناصر الحديثة . وكان امام هذه المجتمعات طريقا طويلا قبل أن تصل  
الى الصورة المثلى التى يظهر فيها نوع من التدرج الطبقي ونوع من النظام  
السياسى الذى لا تتحكم فيه الصفوة . غير أن بعضهم مثل ايليا حريق  
يهتم بدخول العناصر الثقافية الحديثة الى هذه المجتمعات وتأثيرها على  
نظام الموزايكا القائم على ما رأينا منذ قليل . واذا كان حريق يرى في تحول  
النظام السياسى الى الاطار الديموقراطى نمطا مثاليا يجب أن تصبو اليه  
مجتمعات الموزايكا ، الا أن الديموقراطية في هذه المجتمعات لا يمكن أن تقوم  
على اساس التنافس الحربيين جماعات متعددة كما هو الحال في المجتمعات  
الغربية ، وانما تقوم على شكل من أشكال الهندسة الاجتماعية لتحقيق التوازن  
بين الجماعات العرقية المختلفة . انها ديموقراطية من نمط خاص في مجتمع من  
نمط خاص .

على أن الشيء الذى يجب أن نلتفت اليه الآن هو مدى انعكاس هذه  
الافكار النظرية على البحوث الامبيريقية ، التى أجريت في المجتمعات  
الريفية في العالم الثالث ومدى امتداد تأثير هذه النظرية الى البحوث التى  
تجرى على القرية المصرية بصفة خاصة .

ثالثا : اتجاهات البحث الامبيريقى حول جماعات الصفوة في الريف

اتجه البحث الامبيريقى الذى يتخذ من نظرية مجتمع الموزايكا التعددى  
اطارا مرجعيا ، اتجه اتجاهين رئيسيين : الأول هو التأكيد على الانقسام

العرقى في المجتمعات المحية ، وابرار الارتباط القائم بين السيطرة السياسية والانتماء الى اقوى الجماعات العرقية القائمة أو اقوى البدنات في حالة التركيز على الانقسام بين قبائل اوبدنات مختلفة داخل المجتمع . أما الاتجاه الثانى فقد اهتم بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا التعددى . وتتراوح مجالات الاهتمام هنا بين التشكيك في امكانية قيام تكامل في مثل هذا المجتمع الانقسامى وبين من يؤكدون امكانية قيام هذا التكامل سواء من خلال الحراك الاجتماعى أو من خلال فرض نسق قيمى مركزى يستهدف تعبئة الاقاليم الريفية المنعزلة سياسيا وضمها الى الاطار الاقليمى . ونعرض فيما يلى لأمثلة من البحوث الامبيريقية التى ظهرت تحت هذين الاتجاهين :

### ( ا ) الصفوة والانقسام العرقى :

لاشك أن الاهتمام بالربط بين هيمنة الصفوة وبين اقوى الجماعات العرقية يضرب بجذوره في بدايات نظرية مجتمع الموزايكا . فدراسات فيرنفال على مجتمعات جنوب شرق آسيا تعد بمثابة بحوث امبيريقية تؤكد هذه الفكرة . كما أن دراسة كارلتون كون عن مجتمعات الشرق الأوسط تحوى الكثير من البيانات الامبيريقية التاريخية التى تؤكد فكرة تقسيم العمل العرقى . وبالتالي تقسيم المكانات ومجالات النفوذ . ولقد تآكبت الفكرة من خلال بعض الاشارات الامبيريقية للباحثين الذين طوروا هذا الاتجاه في شكله النظرى . ولقد ظل هذا الاهتمام قائما حتى وقت قريب برغم ظهور الاهتمام بمشكلات التكامل داخل مجتمع الموزايكا بدلا من مشكلات الانقسام . ولقد اتضح ذلك من خلال مجموعة من الدراسات نشرت عام ١٩٧٠ عن « جماعات الصفوة في جنوب آسيا » (٥٠) . وتهتم احدى هذه الدراسات بتكوين الصفوة

---

E. Leach and S. Mukherjee (eds.) *Elites in South Asia*, (٥٠).  
Cambridge, At the University Press, 1970.

حاوات هذه الدراسة أن توضح الارتباط بين البناء الطائفى القائم وبين البناء الطبقي ، وانحدار الصفوة السياسية من اقوى الطوائف وأشدها هيمنة على الأرض • وبرغم انتشار التعليم والنظام البرلمانى الديموقراطى ، الا أن العلاقات بين الطبقات وبين الطوائف لم يتغير كثيرا • بل أن الطوائف المسيطرة استغلت الحداثة فى احكام سيطرتها أكثر وأكثر على القرى وذلك من خلال ارسال اولادها الى المدارس ودفعمهم الى حلبة الصراع الديموقراطى • ويطلق على الشخص الذى يحتل مركزا مؤثرا وسلطة مؤثرة لفظ « الدورا » *dora* وهو لفظ يعنى « السيد » أو « اللورد » • ولكى يستحق الشخص هذا اللقب لابد أن يكون له سيطرة على الافراد والملكية • وهو يكتسب سلطته هذه بحق الولادة ، وهو من احدى الطوائف المسيطرة وأقواها ان لم تكن أشدها قوة على الاطلاق • ويقوم الافراد الذين يأخذون هذا اللقب بالخدمات التقيدية فى القرية • وهم يمثلون الصفوة السياسية التى تحقق التوازن بين الطوائف جميعا • وغالبا ما يكون « الدورا » مالكا للأرض ، ومقرضا للفقود *money lender* ، وموظفا بالقرية ، وممثلا للحكومة ، ورجل سياسة • وتكون مهمة الصفوة من هؤلاء الناس تسوية الخلافات التى تنشأ بين القرى ، والتى تنشأ بين الطوائف فى القرية الواحدة • وهى تستعين فى ذلك بشخص كبير السن من كل طائفة ، فضلا عن استدعاء بعض كبار السن من المحايدين • وتتميز الدورا عن بقية الفلاحين فى مساكنها وأسلوب حياتها • وهم يختاطون بعضهم بالبعض الآخر ، وقلما يختلطون بالآخرين من الطوائف الأخر • ولا يدخل أى فرد من الدورا منازل الفلاحين ، وهو يتصل بهم - ان أراد - من خلال وسيط • ولم تؤد الديموقراطية الى ادخال طوائف أحر الى نطاق الممارسة السياسية • فالقرويون يصوتون للدورا

---

Hugh Gray, «The Landed Gentry of the Telengana, (٥١) Andhra Pradesh» in Ibid.

تحت تأثير كبار السن من كل طائفة ، الذين يتم التفاوض معهم من جانب  
الدورا قبل كل انتخاب ، والاتفاق على أخذ جميع الأصوات . وقد حل الباحث  
نتائج انتخابات ١٩٥٢ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٢ ووجد السيطرة الكاملة للدورا  
في هذه الانتخابات الثلاثة ، الامر الذى يشير الى السيطرة المطلقة لها .

ولقد اكد بعض المهتمين بدراسة المجتمع المصرى على الربط بين السيطرة  
على النظام السياسى والتحكم فى الممارسة السياسية وبين أقوى العائلات  
أو البدنات فى القرية . واتضح ذلك - على سبيل المثال - من خلال دراسة  
هارولد براسلى Harold Braclay على قرية مصرية عام ١٩٦٦ (٥٢) :  
وهى دراسة مونوجرافية لقرية « كوم العرب » التابعة لمحافظة الجيزة ، وهى  
قرية تعرف نظاما انقساميا بين مجموعة من البدنات . وفى حديثه عن النظام  
القرابى والنظام السياسى فى القرية ذهب براسلى الى القول بأنه من الصعب  
أن نعثر على طبقات اجتماعية فى هذه القرية ، فالترجى يقوم على تدرج  
لجماعات المكانة التى ترتبط بهيبة ومرتبة كل بدنة من البدنات المكرنة للقرية .  
وتحدد الهيبة النسبية للبدنة من خلال قدرة أفرادها على أن يفرضوا ارادتهم  
على الآخرين . فالبدنة التى تكسب المعارك التى تنشأ مع البدنات الأخرى  
تستطيع أن تحتل مكانة أعلى من البدنة التى تنهزم فى هذه المعارك ( يتضح  
هنا محاولة فصل المكانة عن أصولها الاقتصادية ) . ووفقا لهذا الميكانيزم  
يوجد فى قرية « كوم العرب » اثنتان من البدنات ، تعدان أقوى وأعنف البدنات  
الواجدة . ولا تلعب الثروة دورا كبيرا فى تحديد مراتب البدنات ، غير أن  
الولع يكشف عن أن أكثر العائلات احتراماً وهيبة هى أكثر العائلات امتلاكاً  
للعبيد والأرض . وتسيطر أقوى العائلات على النظام السياسى فى القرية ،  
فمنها عمدة القرية محرر هذا النظام . وقد كشفت الدراسة عن أن منصب

---

H. Braclay, «Study of An Egyptian Village Community», (٥٢)  
Studies in Islam, Vol. 3. No. 3-4, 1966.

العمدة قد ظل في أسرة واحدة طيلة ثلاثة أجيال متتالية . وينتم حل الخلافات التي تنشأ داخل كل بدنة من خلال قانون عرفي يطبقه الكبار ، أما الخلافات التي تنشأ بين البدنات - والتي قد تؤدي الى انهيار حقيقي في نظام القرية - فانها تحل من خلال وساطة يقوم بها أحد كبار البدنة المسيطرة ، الذي يستعين بمعاونين من كبار السن في البدنات الأخرى . وغالبا ما يتم فرض عقاب مالي على البدنة المعتدية . ويهدف النظام السياسي والممارسة السياسية الى خلق توازن بين البدنات المنقسمة ، وكان وجود هذا النظام وتلك الممارسة يعد بمثابة شرط ضروري لتحقيق التكامل في هذا المجتمع الإنقسامي .

### ( ب ) مشكلات التكامل في مجتمع الموزايكا :

لا شك أن مجتمع الموزايكا يعرف شكلا تقليديا للتكامل يقوم على تحقيق توازن بين مكوناته البنائية من خلال سلطة أقوى جماعاته العرقية . ولكن مع تحول هذا المجتمع الى الصورة الحديثة بناء على احتكاكه بثقافات أخرى ، أهمها على الاطلاق الثقافة الغربية ، بدأ هذا الشكل التقليدي للتكامل في الانهيار . وكان على الوحدات الريفية المنعزلة أن تندمج في الاطار القومي ، وكان على كل جماعة عرقية أن تتخلى عن تعصبها الأقليمي والثقافي بحيث يتحقق قدر من التجانس البنائي - الثقافي في المجتمع . وفي هذه الظروف بدأ البحث الامبيريقى يتجه نحو دراسة مشكلات هذا التكامل ، والاساليب المستخدمة في تحقيقه .

واتجهت بعض هذه الدراسات الى التشكيك في امكانية تخلي الجماعات العرقية عن هويتها وفي امكانية ربط القرى بالاطار القومي . من هذه الدراسات دراسة روبرت تايس Robert Tice عن ساحل العاج (٥٢) . يشكك هذا

---

Robert Tice, «Administrative Structure, Ethnicity, and Nation-Building in the Ivory Coast», J.M.A.S., Vol. 12, No. 2, 1974 pp. 211-229.

الباحث في امكانية قيام تكامل في مجتمعات افريقيا ، ويؤكد على أنه بالرغم من تأكيد بعض الباحثين على انحسار الانقسامات السلالية أمام التكامل الذي صاحب ظهور الدول الحديثة ، الا ان الواقع وأنماط التفاعل القائمة فيه لا يكشفان عن وجود مثل هذا التكامل . ويضرب الباحث مثالا لذلك من قرية Djakoteti التي ظهر داخلها انتماء عميق للثقافة القبلية - العرقية السائدة فيها الى درجة ان بعض سكانها ليس لديهم وعى بوجود شيء يسمى « ساحل العاج » . ويستخلص الباحث من دراسته أنه بالرغم من الجهود المستميتة التي تبذلها الحكومة لتجاوز الانقسامات العرقية والقضاء عليها ، الا ان الواقع يكشف عن ان اهل القرى يتوحدون مع نظمهم وثقافتهم الاقليمية ، وليس لديهم أدنى ميل للتوحد مع السطة المركزية الجديدة . وعلى نفس النوال نسجت دراسة أخرى اهتمت بدرجة تكامل جماعة الايبو Igbo كجماعة عرقية في مجتمع نيجيريا (٥٤) . ويهتم الكاتب هنا بما يطلق عليه « دياسبورا » Diaspora الايبو ( اى انتشارهم وتكاملهم مع المجتمع النيجيري من خلال الهجرة الداخلية التي تتحكم فيها عوامل الطرد وال جذب التي تميز بلدان العالم الثالث ) . وبرغم تزايد الهجرة الداخلية للايبو الا انهم لا يتخلون - اينما كانوا - عن هويتهم العرقية . فالمهاجر لا ينسى المكان الذي ولد فيه ، بل ان علاقاته لا تنقطع أبدا مع هذا المكان ، فالهجرة لا تمثل الا حادثة عرضية تفرضها ضرورات اقتصادية . ويؤدي ذلك - بطبيعة الحال - الى مزيد من الانقسامية في المجتمع ككل وفي وحدته الاقليمية بصفة خاصة . بل ان النظام السياسي الداخلى لجماعة الايبو يعضد من هذه الانقسامية . فكل جماعة تتكون من عدة مئات من الافراد تدعى أنها وحدة سياسية مستقلة ، الأمر الذي يولد مزيدا من الانقسام الداخلى . ولا يقبل الايبو من سكان القرى اى

---

Chukuemka Onwubu, «Ethnic Identity, Political Integra- (٥٤)  
tion and National Development : The Igbo Diaspora in  
Nigeria», J.M.A.S. Vol 13, No. 3 1975, pp. 399-413

شكل من أشكال السلطة اللهم سلطة كبار السن الذين يشكلون مجلسا يستطيع أن يفرض احكامه على الجماعات المنقسمة • ولا يستمد كبار السن سلطتهم من أساس قانونى ، وانما يستمدونها من أساس عرفى يرتبط بقدرتهم على اسداء النصح وتقديم الاستشارة •

وبرغم ذلك فقد اتجهت بعض الدراسات الأخرى وجهة أخرى حيث حاولت إبراز بعض خطوط التكامل في المجتمع التعددى الذى يتعرض لتحولات في بنائه الاجتماعى • فقد أكدت احدى الدراسات التى أجريت على أحد المجتمعات المحلية في جنوب افريقيا (٥٥) ، أهمية الحراك الاجتماعى في تحقيق هذا التكامل • فقد نفذت الجماعة العرقية المسيطرة – وهى الجماعة البيضاء – سياسة عزل المجتمعات السوداء • ولكن تحول المجتمع من الاطار التقليدى الى الاطار الحديث قد أدى الى ظهور فئة جديدة – صفرة جديدة – من السود الوطنيين ، لم يدخلوا في صراع مع الجماعة المسيطرة ، وانما توافقوا – من ناحية – مع سياسة العزل ، وتعاونوا من ناحية أخرى مع الجماعة العرقية المسيطرة بحيث ظهر بينهما قدر من الاعتماد المتبادل • وتتكون هذه الصفوة الجديدة من المهنيين وموظفى الحكومة ، والمديرين والمنظمين الذين يعملون لحسابهم الخاص • ولقد تحركت هذه الصفوة الجديدة خطوات كبيرة صعودا على سلم الحراك الاجتماعى • وقد أدى الحراك الاجتماعى لهذه الصفوة الى مزيد من التكامل داخل المجتمع ككل • ويظهر الحراك الاجتماعى هنا وكأنه الميكانيزم الرئيسى لتحقيق التكامل • فعن طريقة تلتئم القرى والمدن المنعزلة مع البناء الكلى للمجتمع • والصفوة الجديدة هى – أولا وأخيرا – الأداة الفاعلة في هذا الميكانيزم •

---

Mia Brandel-Syrier : Reef town Elite : Social Mobility (٥٥)

in a Black African Community on the Johannesburg Reef,  
African Publishing Corporation, N.J., 1971.

ولاشك إن المجتمعات التي لا تعرف نظام العزل العنصرى قد تختلف في هيكلانيزمات تكاملها . ويرتبط أحد الميكانيزمات الشهيرة لدى الباحثين في هذا الاتجاه بالتعبئة السياسية التي تمارسها السلطة المركزية بهدف ربط القرى النائية والمعزلة بالاطار القومى . ولقد اتضح من خلال الدراستين اللتين عرضنا في بداية الفقرة مدى فشل الحكومات المركزية في تحقيق ذلك . ومع ذلك فان بعض الدراسات تؤكد عملية التعبئة السياسية كأساس لتحقيق التكامل القومى في مجتمع المزاياكا . ولقد كان هذا هو المنطلق الذى انطلقت منه دراسة ايليا حريق عن قرية مصرية (٥٦) . ذهب حريق في هذه الدراسة الى القول بأن التغيير في المجتمع الريفى يأتى من تفاعل عوامل داخلية وخارجية . فهو وان كان نتيجة فرض أو نشر قيم مركزية ، الا أنه يرتبط أيضا بدرجة استجابة القرويين لهذه القيم وتعاملهم معها . ولقد أدت التغييرات التى حدثت في المجتمع المصرى منذ بداية الخمسينيات الى ظهور ايدىولوجية قومية بدأت انصفوة القومية في فرضها على كل المجتمع . وفي هذه الظروف بدأت القرى المعزلة تخضع لهذه الايدىولوجية . وأصبح النسق السياسى القومى هو النقطة المرجعية للسلوك السياسى والاقتصادى للفلاحين المصريين . غير أن البحث يكشف عن استعداد لدى الفلاحين لقبول هذا النوع من التعبئة السياسية ، الامر الذى جعل ما يبثه النسق السياسى المركزى الى مجتمع القرية سريع الانتشار والتاثير . ولقد أدت التعبئة السياسية المركزية الى ربط المجتمع الريفى - على هذا النحو - بالمجتمع القومى . وترتب على العملية برمتها تغيير في نمط السلطة في المجتمع الريفى . فظهرت في هذا المجتمع الريفى صفوة جديدة أخذت بزمام الامر من الصفوة القديمة التقليدية . وبدأ توزيع القوة يصبح أكثر انتشارا على جماعات مختلفة . وفي هذه الظروف ظهر تناقض بين بناء القوة على المستوى المحلى الذى يظهر فيه قدر من الانتشار وبين بناء القوة على المستوى القومى الذى يتركز في أيدى فئة

---

I. Harik, The Political Mobilization of Peasants, op. cit. (٥٦).

قليلة من الناس • وهكذا يولد التكامل داخل مجتمع الموزايكا تناقصا من  
خوع جديد •

وهكذا جسدت هذه الدراسات الامبيريقية بعض القضايا النظرية التي  
أثارها أنصار نظرية مجتمع الموزايكا التعددى • والسؤال الذى يطفر الى  
الذهن الآن : الى أى مدى يتمتع هذا الاتجاه بالصدق الامبيريقى ؟ وبعبارة  
أخرى : الى أى مدى يصبح هذا الاتجاه ملائما لتفسير بناء الصفوة فى مجتمعات  
العالم الثالث ؟ الاجابة على هذا السؤال هى موضوع الفقرة النقدية القادمة •

#### رابعا : نقد نظرية مجتمع الموزايكا

يبدو أن نظرية مجتمع الموزايكا التعددى تميل هى الأخرى نحو التحليل  
المعيارى ، طالما أنها تضع صورة المجتمع الغربى كنموذج مثالى - غير أن  
مشكلات هذه النظرية أكبر وأعمق من المشكلات التى يثيرها التحليل المعيارى .  
فقد أدت المضامين الأيديولوجية الكامنة فى هذه النظرية الى تحويل بؤرة  
اهتمام التحليل السوسولوجى الى ظواهر ليست حاسمة فى تشكيل البناء  
الاجتماعى ، وهى ان أثرت فهى سطحية اذا قورنت بالظواهر التى سببت  
وجودها أساسا • وسوف يستهدف هذا النقد تأكيد الحقيقة التى مؤداها  
أن هذه النظرية قد فشلت فى تقديم بديل نظرى كاف لتحليل البناء الاجتماعى  
السياسى لمجتمعات العالم الثالث ، كما أنها لا تتمتع بالصدق الامبيريقى الا  
فى المجتمعات التى تصيح فيها الانقسامات العرقية على درجة كبيرة من  
الحدة ، وحتى فى هذه الظروف فإن التفسير الذى تقدمه هذه النظرية لا يبرز  
الهيمنة السياسية الاقتصادية لجنس معين بقدر ما يبرز دوره فى تحقيق  
التكامل داخل المجتمع الانقسامى • ولا شك أن السبب الكامن خلف هذا  
انكوص النظرى ، يرجع الى فرط اهتمام أنصار هذه النظرية بالتحليل  
المعيارى ، فضلا عن اهتمامهم بالمشكلات الصغرى minor issues للبناء  
الاجتماعى ورد البناء برمته الى هذه المشكلات ، الأمر الذى أدى الى ضحالة

تفسيرهم للمشكلات الكبرى كمشكلة الطبقة ، والقوة ، والسلطة ، والصراع ، وغيرها .

١ - يصف أنصار هذه النظرية - خاصة مجموعة افريقيا - نظريتهم بأنها « نظرية صراع » Conflict theory في مقابل نظرية « التوازن » equilibrium theory ، وهم يعتقدون بذلك أنهم حققوا تقدما نحو صياغة نظرية عامة للمجتمع التعددي ، تتفوق في عموميتها على الصياغات المبكرة لهذه النظرية كما جاءت في أعمال فيرنفال . غير ان هذا الادعاء قد جرف هذه النظرية الى بؤرة التحليل المعيارى المرتبط بنموذج التوازن . فالواضح من العرض السابق ان التقدم الوحيد الذى حققته هذه النظرية على صياغة فيرنفال هو القول بأن كل المجتمعات تعرف صورة من صور التعددية : والمحقق أن هذا التقدم قد شوه صياغة فيرنفال أكثر من كونه قد أكسبها طابعا عاما . فقد ذهب أحد النقاد الى القول بأن النظرية فشلت في تطوير عنصرين هاميين في صياغة فيرنفال : الأول : التأكيد على الجانب الاقتصادى وعلاقات السوق في المجتمع التعددى ، والثانى : التأكيد على انطباق فكرة المجتمع التعددى على مجتمعات بعينها ، دون المجتمعات الأخرى (٥٧) . وانصب الاهتمام بدلا من ذلك على محاولة تعميم فكرة المجتمع التعددى الذى يقوم على الانقسام العرقى على مجتمعات كثيرة ، مع التفرقة بين انماط مختلفة للمجتمع التعددى وفقا لدرجة للتكامل وعمومية القيم . وقد أدى ذلك بهم - على ماذهب ناقد آخر - الى تشييد نموذج مثالى واختباره في الواقع كنظرية ، الأمر الذى أدى الى اختلاط الوصف بالتفسير . والتناقض بين الصياغة المعيارية والواقع ، والاهتمام بجوانب الضبط الاجتماعى أكثر من الاهتمام

---

B. Magubane, «Pluralism and Conflict Situation in Africa: (٥٧) A New Look», Af.S.R. Vol. 7, June, 1969, p. 541.

إذا كان القول السابق يصدق على مجموعة افريقيا ، فماذا عن مجموعة الشرق الأوسط ؟ الواضح من العرض السابق أن مجموعة الشرق الأوسط لم تبذل جهدا في المقارنة بين أنماط متعددة من مجتمع الموزايكا ، غير أن هذه المقارنة كامنة في صياغتهم على أى حال • ويبدو أن مجموعة الشرق الأوسط - خاصة كارلتون كون ونيوفانهويزه - ترى في مجتمع الموزايكا التقليدى مجتمعا راكدا لا يصيبه التغير الا ببطء شديد • وقد أدى هذا الى مغالطة من نوع آخر ، تنحصر في وصف المجتمع التقليدى في العصر الحديث بنفس الطريقة التى وصفه بها ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر (٥٩) • وكان هذا المجتمع لم يتعرض لأى تغييرات ، وأن تنظيمة الاجتماعى التقليدى من الصعب أن يتحول الى الصورة المثلى للمجتمع (الغربى) فمن المعروف أن ابن خلدون قد ركز في المجتمعات التى كتب عنها ( ومنها بعض مجتمعات الشرق الأوسط التى تحدث عنها انصار نظرية مجتمع الموزايكا ) على الانقسام بين أهل البداوة ، وأهل الزراعة ، وأهل الحضرة • ولقد تحدث عن الجماعات والعصبيات بشكل يكشف عن انقسام وتعددية ظاهرين في هذه المجتمعات • فأهل الأمصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا لحما وقراة وتجد بينهم من العداوة والصدقة ما يكون بين القبائل والعشائر فيتفرقون شيئا وعصائب • (٦٠) • ومن المدهش أن نجد ابن خلدون

---

M. Cross, «Cultural Pluralism and Sociological Theory», (٥٨)  
.S.E.S, Vol. 17, No. 4, 1968, pp. 375-397

(٥٩) وبرغم التشابه الواضح بين صياغة ابن خلدون وصياغة نيوفانهويزه  
وكون الا أن هذين الباحثين لا يشيران اليه من قريب أو من بعيد ،

ويقدمان صياغتهما النظرية على أنها شئ جديد تماما •

(٦٠) ابن خلدون ، المقدمة : الجزء الأول من كتاب العبر ، مطبعة التقدم

بشارع محمد على بمصر ، ١٣٢٩ هـ • ص ٤١٦ •

يشير إشارة صريحة الى ما أطلق عليه انصار نظرية الموزايكا فيما بعد « تقسيم العمل العرقى » عندما كتب فضلا « في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض » ، حيث يعمل أهل كل مصر في صنعة معينة وفي عمل معين « فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه » (٦١) بل ان ابن خلدون يصور النظام السياسى في المجتمع بنفس الاسلوب الذى تحدث به هؤلاء الباحثون المعاصرون . ولنقتبس من ابن خلدون باستفاضة في هذا المجال :

« ان كل حى أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصابات أخرى لانساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم . . والرياسة فيهم انما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل . ولما كانت الرياسة انما تكون بالغلب وجب ان تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصابات ليقع الغلب لها وتتم الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصابات الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة . فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم الى فرع ولا تنتقل الا الى الأقوى من فروعه لما قلنا من سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدها والا لم يتم التكوين فهذا سر اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بها كما قرره » (٦٢) .

ولا يحتاج الاقتباس لأى تعليق لايضاح أوجه الشبه بين أفكار ابن خلدون وأفكار أنصار نظرية مجتمع الموزايكا من مجموعة الشرق الأوسط .

---

(٦١) المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

(٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

على أن هذا الشبه لا يهمننا في ذاته على ما فيه من دلالة ، وإنما الذى يهمننا هنا هو أن أنصار نظرية مجتمع الموزايكا قد نظروا الى مجتمعات الشرق الأوسط في القرن العشرين نفس النظرة التى رآها ابن خلدون في القرن الرابع عشر ، وكان هذه المجتمعات لم تعرف أى ضرب من ضروب التغيير أو التحول منذ ذلك التاريخ ، وهذا دليل قاطع على ركود هذه المجتمعات وعدم قابليتها للتحول السريع من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه . وما أود أن أوكد عليه هنا هو أن المجتمع الذى يصفه هؤلاء الباحثون لم يعد موجودا الآن ، وأن النظرية التى قدموها لا تصف الا مجتمعا كان قائما في ماضى المجتمع الذى يهتمون به فقط .

٢ - لقد اجمع نقاد هذا الاتجاه على نقطة هامة مؤداها أنه يبسط الواقع الاجتماعى ويقدم تحليلا سطحيا له ، وقد أدى هذا الى اهمال جوانب هامة في هذا الواقع . وقد كتب أحد النقاد حول هذه النقطة يقول .

« تمثل نظريات التعددية الثقافية تبسيطا ضخما للواقع . . . فقد تركت أسئلة كثيرة دون اشارة ، وعندما كانت تثار بعض الاسئلة وتندم لها اجابات أو تفسيرات جزئية فان هذه الاجابات وهذه التفسيرات كانت تميل الى توجيه انتباهنا بعيدا عن أهم المسائل حيوية وجوهريّة » (٦٢) .

كما ذهب ناقد آخر الى أن هذا الاتجاه يعتبر اتجاها لا تاريخيا ahistorical يعزل مواقف الصراع في المكان والزمان بحيث ظهر الصراع العرقى والى و كأنه يعمل في فراغ بمعزل عن العوامل الاجتماعية التاريخية ، أو السياق التاريخى للموقف الاستعماري في المجتمعات الافريقية (٦٤) . وكتب ناقد ثالث معلقا على أسلوب التحليل وطابعه في هذا الاتجاه يقول :

M. Cross, op. cit., p. 381.

(٦٣)

Magnabane, op. cit, p. 529.

(٦٤) .

« ان تأسس التحليل على المحكات التي تعرف الجماعة بها نفسها ( كالعائلة والدين ) والصراع بين هذه الجماعات يؤدي الى اهمال الجوانب التي تحتاج الى تفسير واعتبارها معطيات . وما يحتاج الى تفسير هو لماذا وجدت هذه الجماعات بالفعل ولماذا تدخل في صراع بعضها مع البعض الآخر . ولهم هذه الأمور لابد من تحليل الظروف التي تولد انماطا معينة من الصراع، وتلك التي تؤثر في طبيعة ودرجة شدته ، (٦٥) .

وكل هذه الانتقادات تشير الى أن الاتجاه التعددي هنا قد ركز على عناصر فرعية وثانوية واهمل الجوانب الهامة التي يعتبر تفسيرها أساس تحليل البناء الاجتماعي كالعراق والطبقات وعلاقة ذلك بالقوة السياسية والظروف التاريخية التي أفرزت كل هذه العلاقات . وإذا حاولنا أن نطور هذا النقد خطوة أخرى، فأننى أميل الى التمييز بين نوعين من المسائل *issues* المتعلقة بدراسة البناء الاجتماعي : النوع الأول هو المسائل الثانوية *minor issues* ، والنوع الثانى هو المسائل الأساسية *major issues* . وأقصد بالمسائل الثانوية تلك الظواهر اللاحقة *epiphenomena* التي ليس لها وجود مستمر في الزمان والمكان . وهذا النوع من المسائل لا يمكن التعميم عليه ، بل ان أى تعميم يصدر عنها يعتبر غير صادق بالضرورة اللهم الا اذا تحولت هذه المسائل الثانوية - ولظروف تاريخية معينة - الى مسائل جوهرية . أما المسائل الأساسية أو الجوهرية فهي ظواهر أصيلة *sui-generis* لها وجود تاريخي في الزمان والمكان، وهى الظواهر التي يمكن أن يتم التعميم من خلالها دون الخوف من الوقوع في مواطن الزلل . وإذا أخذنا مثالا على هذين النوعين من المسائل فان الحرب تعتبر مسألة ثانوية في حين ان الصراع الذي قد يولد الحرب يعتبر مسألة أساسية .

---

H. Wolpe, «The Theory of Internal Colonialism : The (٦٥) South African Case» in Oxal et al (eds.) *Beyond the Theory of Development*, Routledge and Kegan Paul, 1976, p. 238.

فالحرب تنشب في لحظات بعينها في التاريخ ، وبسبب ظروف تبدو مؤقتة ، وهي محكوم عليها بالانتهاء . أما الصراع فإنه يرتبط بجوهر العلاقات الاجتماعية وهو موجود بأشكال مختلفة في كل الفترات التاريخية تقريبا . وإذا ما بدأ الباحث من ظاهرة الحرب فإنه لا يستطيع أن يقدم تفسيراً كافياً لأنماط الصراع ، ولكنه إذا بدأ من ظاهرة الصراع فإنه يستطيع أن يقدم تفسيراً كافياً لظاهرة الحرب . ويدعوننا هذا إلى أن نأخذ في اعتبارنا نقطتين :

( ١ ) أن مسألة أساسية واحدة لا يمكن أن تقدم تفسيراً كاملاً للبناء الاجتماعي برمته ، وإنما يجب أن يتم ذلك من خلال توليفة من هذه المسائل .

( ب ) أن المسائل الثانوية يمكن أن تصبح في فترات تاريخية مسائل أساسية ، ولا يمكن - في هذه الحالة - تقديم تفسير كافٍ للبناء الاجتماعي في هذه الفترة دون الإشارة إليها . وهكذا لا نستطيع أن نفسر الحقبة النازية في ألمانيا دون أن نشير إلى ظاهرة الحرب كمسألة أساسية ، تماماً كما لا نستطيع أن نفسر البناء الاجتماعي المعاصر لمجتمع جنوب أفريقيا دون الإشارة إلى سياسة العزل العنصري كمسألة أساسية .

وإذا حاولنا تطبيق هذا على مقولات نظرية مجتمع الموزايكا ، فإننا نجد أن الانقسامات السلالية والعرقية ليست من المسائل الأساسية التي تتواجد في كل المجتمعات في كل زمان بحيث يمكن من خلالها صياغة نظرية عامة عن المجتمع . وفي هذه الحالة فإن رد كل عناصر البناء الاجتماعي لهذه الانقسامات لن يقدم إلا صورة مشوهة عن هذا البناء وأكثر من هذا فإن مثل هذا التحليل سوف يطمس المسائل الأساسية التي تحتاج إلى تفسير والتي أشرنا إلى بعض منها منذ قليل ، وهي من المسائل الأساسية التي يمكن التعميم عليها بحق . بل البدء من هذه المسائل الأساسية كفيلاً هو نفسه

بأن بطى الضوء على المشكلات السلالية كما أشار النقاد الذين أوردت آراءهم في مكان سابق من هذا التحليل النقدي . فدراسة الصفوة أو بناء القوة - على سبيل المثال - من خلال فكرة الانقسام العرقى يظهر الصفوة وكأنها تعمل في فراغ ، أو كأنها مقطوعة الصلة بالبناء الاجتماعى الذى تحقق التكامل فيه وهى الوظيفة المنوطة بالصفوة فى هذه الصياغة النظرية . والأمر يختلف إذا بدأت الدراسة من منظور مغاير كان تبدأ الدراسة من علاقة الصفوة بالبناء الاقتصادى - القيمى فى المجتمع أو من علاقة الصفوة بالتركيب الطبقي ، أو بالظروف التاريخية التى شكلت البناء الاجتماعى على نحو معين . فى مثل هذه الحالة ، فإن التحليل سوف ينتهى الى نتائج مغايرة . وفضلا عن ذلك فإن المشكلات الفرعية المتعلقة بالانقسام العرقى قد تبرز فى أثناء هذا التحليل دون اعتبارها مشكلات حاسمة فى تشكيل البناء الاجتماعى .

ولا يقلل من أهمية استبعاد مشكلات السلالية والعرق من التحليل كون مجتمعات العالم الثالث مجتمعات متغيرة ولم تصل بعد الى مرحلة من التجانس الثقافي العرقى كما هو الحال فى الدول المتقدمة . ذلك أن بعض هذه الدول المتقدمة ذاتها لا تزال تعرف مشكلات الانقسام العرقى مثل كندا وبلجيكا وإيطاليا والمملكة المتحدة . هذا فضلا عن أن الكثير من مجتمعات العالم الثالث قد تجاوزت مرحلة الانقسام العرقى ، بل إن بعض هذه المجتمعات لا يعرف مشكلات الانقسام العرقى على الإطلاق . فقد أكدت دراسة أجريت على مجتمع بدائى بسيط ( جزيرة موريشيوس Mauritius فى المحيط الهندى ) أن مفهوم المجتمع التعددى قد فشل فى تفسير التدرج الاجتماعى فى هذه الجزيرة . واكتشف الباحث أن البناء الاجتماعى لهذا المجتمع البسيط قد خضع لعملية تباين بحيث تفوقت التقسيمات الاقتصادية للمجتمع على تقسيماته السلالية ، وتحول المجتمع من مجتمع يقوم التدرج فيه على السلالة الى مجتمع يقوم التدرج فيه على الطبقة بمفهومها الاقتصادى (١٦) .

---

Burton Bendict, «Stratification in Plural Societies», A.A., (٦٦)  
Vol. 64, 1962, p. 1244.

ويترتب على هذا التحليل النقدي أن يتكشف القصور النظري الذي  
يكتنف هذه النظرية ، الأمر الذي يدعونا الى رفضها وعدم الاعتماد عليها  
مطلقا في تحليل أبنية مجتمعات العالم الثالث . ويكفي انها تحمل دعوى  
ضمنية بانقسام هذه المجتمعات في الوقت الذي تحتاج فيه هذه المجتمعات  
الى توحيد الجهود وتكاملها من أجل احداث تغيير جذري .